البيت العلوي في المغرب

• أمين الريحاني

في أواخر النصف الأول من القرن السادس عشر كانت سيادة البربر في المغرب الأقصى على وشك الزوال، ويوم تغلب محمد المهدي السعدي علي باحسُّون آخر ملوكهم أنهار صرح تلك السيادة فقامت على أنقاضه الدولة السعدية.

كان محمد المهدي مؤسس هذه الدولة شديد البأس شجاعاً طموحاً، وعلى شيء من الحكمة فوالى الإنكليز لتحسين تجارة البلاد، ووطد صلته تعزيزاً لسياسته ولكنه حمل على البرتغاليين حملات موفقة وهو يطمع بالاستيلاء على ثغور المغرب كلها.

وكان الأتراك يومئذ يتقدمون في إفريقيا الشمالية فتحا واحتلالاً، فزاد المهدي بجنوده واضطر للقيام بنفقاتها وتعزيزها أن يزيد بالخراج على رعاياه... الخراج! عقبة سلاطين المغرب الكأ داء فلما زاد بالخراج تمردت بعض القبائل وذرّ فيها قرن الفتنة، وبما أنه والى النصارى ثار عليه ثائر الدين كذلك، فقام الغُيُر المرابطون يدعون المؤمنين للجهاد، فحمل المهدي عليهم حملة شعواء بددت شملهم، قتلاً وطرداً بعد ان هدمت زواياهم، بددت تلك الحملة شملهم وما أخمدت نارهم فراح الناجون والمطرودون يناصرون الأتراك على سلطان البلاد فتعددت عليه الأعداء، ولكنهم لم يتمكنوا منه إلا غدراً ومن تهكم الأقدار أن تكون اليد الغادرة من جنده.

بعد وفاة المهدي (٩٦٣ هـ -١٥٥٧م) خلفه ابنه الملقب بالغالب فتمشى على سياسة أبيه في موالاة الأسبان وتوطيد صلاته بهم كما أنه واصل الحملات على غلاة الدين، وما كان فيها موفقاً توفيق أبيه وقد حاول محمد الغالب أن يجدد بعض مجد المغرب، أو يعوض بالبناء عن إخفاق سياسته الداخلية، فشيد قصراً فخماً في عاصمته وبنى مدرسة

وجامعاً، على أنه ظل موالياً للأسبان (الكفار) في نظر أولئك الغُيُر على الدين، فقضى نحبه بين حبّين تجاذبا قلبه حب الجزيرة الخضراء وحب الجنة.

وما كان ابنه محمد المتوكل ذلك الخلف السعيد للسلف الحميد، ما صح على ما يظهر توكله، بل صح فيه مثلنا اللبناني: «أول دخوله شمعة على طوله»، وقل شمعتان ويل للسلاطين من العمومة وأبناء العم، فقد نازع المتوكل الملك اثنان من عمومته اسم أحدهما عبد فعاد المغرب إلى سالف عهده إلى الفتن والحروب وكان عبد الملك منتصراً على ابن أخيه الذي فرّ هارباً إلى بلاد البرتقال، وراح يتوكل على (الكفار).

ولكن مليك تلك البلاد البرتقالية يوحنا الثالث (١٥٢١-١٥٥٧) كان زاهداً بالأساكل الإفريقية والثغور المغربية مؤثراً عيها البرازيل وفتح واحد في العالم الجديد ينسيك الفتوحات والاندحارات -المغربية كلها ليأخذ السلطان المهدي وهو المعاصر ليوحنا، الموفق في حملاته على البرتغاليين في الثغور التي احتلوها على شاطئ الأطلنتيك والمتوسط، فأخرجهم من سبتة وما بالى يوحنا بما حل بهم في الثغور الأخرى، ولا كان معارضاً في تقدمة طنجة هدية إلى الأميرة كاترين -بعض مهرها- يوم زواجها بالملك شارلس الثاني.. خذوا طنجة يا أبناء العم الإنكليز وخلصوها من يد الكفار.

أما الملك سبستيان الذي خلف أباه (١٧٥٥ - ١٥٧٨) فلم يكن زاهداً زهده بالمغرب بل كان يترع نزعة أجداده الفاتحين، ويطمع باستعادة ما خسرته البرتقال في عهد أبيه.

كان سبيستيان شديد النعرة الدينية، مثل أولئك المرابطين في المغرب، سبستيان المرابط البرتغالي تلميذ الآباء اليسوعيين وحامي الدين ثار ثائره على «الكفار» أو أثاره وحرضه عليهم اليسوعيين فعبأ الجيوش لفتح بلادهم وتنظيف الأرض منهم راح يغزو بلاد المسلمين بصليب اليسوعيين فصلى أولئك الآباء واتباعهم من أجل سبستيان.

وكان محمد المتوكل لا يزال في بلاد البرتقال فسمع المصلين يصلون في -كدت- أخط الكلمة فوقفت عندها متورعاً سبحان العالم بذات الصدور ولكني أتصور المتوكل قائلاً أنا وابن عمي على الغريب وأنا والغريب على عمي!

أبحر الملك سبستيان بجنوده ومعه محمد المتوكل، فتزلوا في أصيله ومشوا جنوباً إلى العرائش فخرج لهم السلطان عبد الملك بجيش من القبائل ونازلهم في وادي المخازن بالقرب من القصر الكبير.

هناك في أغسطوس سنة (١٥٧٨م -٩٨٤هـ) كانت الواقعة الكبرى التي تعرف في تاريخ المغرب بواقعة الثلاثة الملوك، فقتل فيها سبستيان وهلك المتوكل، ومات بعيد ذلك عبد الملك إنما النصر كان للقبائل التي حاربت يومئذ مع عبد الملك وكانت متحدة مستبسلة فنصرها الله على الكفار كما يقول مؤرخ تلك الأيام.

بعد وفاة عبد الملك تولى أخوه أحمد الملك فبايعته القبائل التي حاربت في واقعة وادي المخازن وراح يؤدب بها الخارجين عليه، ويخضع المتمردين في شمال البلاد وشرقها، فكان منتصراً في حملاته كلها، فسمي المنصور.

ثم غزا المنصور السودان فوصل إلى تمبكتو وعاد منها ظافراً غانماً الغنائم الكثيرة منها ألف عبد عمليق وثمانية آلاف قطعة من الذهب فسمي الذهبي وفاتح السودان.

كان ذلك السعدي المنصور على جانب يذكر من صفات الفاتح والسياسي، قرن الشجاعة بالحكمة، وكللهما بالعلم وبحبه لأهل العلم يتخذ منهم الكتاب والأعوان فقالوا هو (عالم الخلفاء وخليفة العلماء).

ازدهر المغرب في عهد هذا الخليفة الكثير الألقاب والكثير الأعمال الجليلة فتوطدت أركان الملك والأمن والسلام في البلاد، ثم سعى لتوطيدها كذلك في الخارج بعقد معاهدات حسن الجوار والتجارة مع دولتي انكلترا واسبانية فحال القدر دون اتمام مشاريعه هذه الدولية يوم فتح باب القصر للوباء الذي غزا المغرب سنة ١٦٠٥ فكان المنصور الذهبي غنيمته الكبرى لقد نكب المغرب في فقده نكبتين، نكبة البناء الصريع في وسط عمله، والنكبة التي تلتها.

خلف المنصور ابنه زيدان فقام أخوه فارس والمأمون ينازعانه الملك، فاحترب الأخوة الثلاثة احتراباً دام بضع سنوات، استولى المأمون خلالها على العرائش فباعها من البرتقاليين[1] سنة ١٦١٠ حاجته إلى المال في محاربة أخيه، وفي هذه الحرب الأخوية احتل الاسبان سنة ١٦١٤ ثغر المعمورة —المهدية اليوم- عند مصبّ نهو السبو.

أما زيدان فبالرغم عن أنه أزيح أخيراً من أخويه — قتل فارس في إحدى المعارك، وقتل المأمون غدراً في ضواحي طنجة-لم يستتب الحكم له وما امتاز أنه آخر السلاطين السعدديين فالمهدي جده أخرج الفرنجة من بعض ثغور المغرب، وعمه عبد الملك ردّهم عنها مدحورين خاسرين، وهاهم بفضل هذه الحرب (الأخوية) يعودون، فلا عجب إذ ثارت في البلاد ثوائر الدين والقومية العربية، خصوصاً وأن العرب المتخلفين في اسبانيا

(١) باعها بنصف مليون دوقة، أي ربع مليون ليرة انكليزية.

طردوا منها بعد فتنة سنة ١٩٠٦ هناك فتخلل الثوائر الدينية القومية ثائر الانتقام: أخرجتمونا من اسبانيا فسنخرجكم من المغرب ولن تعودوا.

دعا الداعون للجهاد جهاد الفرنجة والموالين لهم من أولي الأمر في البلاد، وكان في مقدمة الدعاة رجل اسمه أبو حسن علي الشريف، من أشراف الحجاز هاجر أهله من ينبع إلى المغرب الأقصى فتوطنوا سجلماسة في الجنوب.

راح علي الشريف يدعو للجهاد بلهجة ملتهبة فصاحة وإيماناً فلبّاه الناس من بدو وحضر، وانضم إليه أولئك الذين طردوا من اسبانيا، فعظم أمره، وانتشرت دعوته فاستحالت ثورة على السلطان السعدي زيدان ويوم استولى الثائرون على سجلماسة نادوا بأبن علي محمد (١٠٥٠هـ - ١٦٤١) ملكاً على تغيلالت أي المقاطعة الجنوبية من المغرب.

قضى السلطان زيدان نصف مدة ملكه في محاربة أخويه، والنصف الآخر في محاربة أولئك الثائرين الطالبين المُلك الممهدين لدولة جديدة دولة عربية شريفية علوية، وما كان انتصاره على أخويه ولا كانت حملاته على الثائرين لتمحو ما خطته يدر القدر في البداية وفي النهاية من تاريخه وهو أنه آخر السلاطين السعديين.

كان الرشيد أخو محمد بن علي حامل العلم الأول في الجهاد ومنتصراً في أكثر مواقعه، فعلا نجمه وردد بين القبائل هؤلاء الثلاثة العرب علي الشريف صاحب الدعوة وابنه محمد زعيم الثورة وابنه الرشيد ناشر أعلامها شرقاً وشمالاً هم الأركان الثلاثة للدولة الجديدة ويصح أن يقال أن علياً وابنه محمداً مهّدا لها، وأن الرشيد مؤسسها وأول ملوكها فقد بويع بالخلافة في ٦٥ يونيو سنة (١٦٦٦م - ١٠٧٥هـ) ونودي به (ملك تفيلالت، وفاس ومراكش وترودنت وسائر المغرب).

ولكنه كان قصير العمر، فبعد ست سنوات من جلوسه على العرش بفاس، يوم كان عائداً من ساحة القتال، وقد أخمد فتنة أضرمها ابن عم له، جفل جواده في حديقة القصر فاصدم الملك بشجرة فشج رأسه شجة قضت عليه وهو في الأربعين من سنيه.

أما أخوه إسماعيل الذي تبوأ العرش بعده، فقد عاش طويلاً وملك سعيداً خمسة وخمسين سنة (١٦٣٢ - ١٧٢٧) وهو أحد الثلاثة السلاطين العظام في تاريخ المغرب.

وكان معزز الأمن ضابط الأمور بيد من حديد بقلب لا يغرف الشفقة والحنان حتى في أخص أهله في الحريم فقد كان اسماعيل مزواجاً عجيباً، لزم الحد في الشرعيات وما

عرف حداً لما جاء في الآية و«ما ملكت أيمانكن» وكان فخوراً بذريته التي تجاوزت المائتين عدا ذكوراً وإناثا.

تحدث العارفون من الفرنجة الذين زاروا المغرب وأقاموا فيه عن حريم اسماعيل فقالوا إنه مثل حريم النبي سليمان، فيه ما لا يقل عن الخمسمائة من النساء البيض والسود، وبينهن شقراء انكليزية.

وقد أراد اسماعيل أن يضيف إلى ما ملكت يمينه فرنسية من باريس، من الذرية الملكية فطلب من لويس الرابع عشر ابنته مداموزيلده كونتي من محظيته لوزاده فاليار وكان قد وصف له محاسنها سفيره إلى ملك الفرنسين العظيم، وقال إنها تقبل أن تتغرب وتتجرب وتعتنق فوق ذلك الإسلام.

ولكنها لم تتوافق إلى ما كان يشتهيه قلبها المجنح فتغربت وتجربت في باريس، قال المؤرخ: عندما طلبها السفير المغربي كان الجواب ابتسامة ناعمة- فرنسية الذوق والمعنى ولكن أحد رجال البلاد قال للسفير: ولماذا لا يصير ملككم مسيحيا؟.

كان لويس الرابع عشر في الرابعة والثلاثين من سنيه والتاسعة والعشرين من ملكه يوم بويع اسماعيل الخلافة وهو في السادسة والعشرين فتعاصر الملكان ثلاث وأربعين سنة وتشابها في طول عهديهما فقد ملك لويس اثنين وسعين سنة منها ست عشر بوصي فيكون حكمه الشخصي الفردي ست وخمسين سنة، وملك اسماعيل خمسة وخمسين عاماً كاملاً.

ولو كان لويس ملك المغرب ومنه لكان حريمه كحريم اسماعيل وأعظم ولو كان اسماعيل ملك فرنسة لكان في تسرِّية اللويس الأكبر.

وقد تشابه الملكان بالاستقلال والاستبداد في الحكم فما كانا يطيقان المعارضة ولا يأذنان برأي مخالف للرأي الملكي، كلمة لويس L'etat C'est Moi كان يقولها اسماعيل بلهجات شتى أو بالحري في شتى أعماله كل يوم، وقد تشابه الملكان في آن الفرنسي كان يحسب نفسه ظل الله على الأرض والعربي المغربي يدعى خليفة الرسول، إلا أن العقلاء من رجال ظل الله كانوا يبتسمون ويتهامسون وأهل المغرب يبايعون على الخلافة ولا تهامس ولا ابتسام وقد تشابه الملكان في مطامعهما السياسية، فشاء لويس ان يبسط نفوذه في كل مملكة من ممالك أوروبا، وشاء اسماعيل أن يكون سيد المغرب بل سيد افريقيا الشمالية جمعاء..

شعر لويس بشيء من عظمة سيد المغرب فواصله ليدنيه من ظل سيادته ونفوذه، وأدرك إسماعيل عظمة لويس فأرسل سفيره إليه متوددا متقربا.

ويوم عاد السفير من باريس وصف لمولاه محاسن قصر فرساي ومفاخره، فعول إسماعيل على أن ينقل ذلك القصر إلى مكناس ويزيد عليه لا لشغفه بالبناء فقط، بل حبا بالمنافسة والمفاخرة وما شيده قصر القصبة فكان مدينة بذاته والحصون الثلاثة المحدقة بهم، ومدينة الرياض لكبار الموظفين فبلغ عدد العمال فيها ثلاثين ألفا وألفين معهم من أسرى النصارى[1].

كان لاسماعيل حبّان يسيطران على قلبه وعقله وروحه، ذكرت أحدهما وهو حبه للنساء وأما الثاني فهو حبه للمال كان يبتزه خصوصا من اليهود، وكان فخورا بذريته كما قدمت وبعبيده السود وأسكنهم دورا في ضواحي العاصمة، فكان يحسن إليهم، ويعتني حتى بزواجهم ويجيز الأذكياء من أولادهم بأن يعلمهم الصناعات كان حرس الخمسمأة، حرس القصر من هؤلاء العبيد وكان منهم العمال في سائر الأنحاء ينفذون أوامر المولى، ويوطدون أركان الأمن والملك في البلاد، بل كانوا سيفه المدين في المملكة المزين في القصر.

قال المؤرخ: كان اسماعيل يستخلف أولئك العبيد على كتاب البخاري بالإخلاص له ولملكه فسموا (البخاريين).

ومن الأسى الذين كان يجيء بهم القرصان هي ذي القوى المسلحة التي كانت تمثل مشيئة المولى الرهيبة وإرادته العالية وغير العالية، فأصبحت بلاد المخزن في عهده بلادا واحدة طائعة خاشعة، آمنة مطمئنة، كانت البوادي حتى في أعالي الأطلس تخشى اسماعيل وتقول: في البلاد اليوم سيد جبار.

كان اسماعيل طويل القامة شديد البنية، مخروط الوجه، مقرون اللحية، براق العين، ناعم النظرات وما فقد في شيخوخته نشاطه الوثاب، وروح المرح والشباب، قال أحد الفرنجة الذين زاروا المغرب أنه رأى السلطان الشيخ راكبا ذات يوم حصانه، وقد حمل أحد أبنائه الصغار بيده والرمح بالأخرى، وأنه كان يمتطي جواده من الأرض وثبة واحدة كالفارس المغوار، وقد كان اسماعيل ذكي الفؤاد، سريع الخاطر كما أنه كان قاسي

(١) كان القرصان المسلمون يأتون بالأسرى والسبايا من النصارى إلى المغرب فيبيعونهم بيع الرقيق ويبقون مشرقين إلى أن تفديهم حكوماتهم أو أهلهم، وكذلك كان يفعل القرصان المسيحيون بالأسرى المسلمين.

القلب، سريع الغضب، بل كان في غضبه رهيباً فلا يجرؤ أن يدنو منه ساعتئذن أحب الناس إليه، لقبّه الفرنجة بالدموي لأن الدم كان يجري من مركز سيافه بمكناسة كل يوم وإن مثله يصف عرب البادية بشيء من الاهتياب والإعجاب قائلين هذا ملك يقط الرؤوس!

هو المولى اسماعيل الذي جدد في المغرب مجد يوسف بن تاشفين وقد من الحسنات ما قد يشفع بذنوبه لدى الحكم الأعلى.

ومن ذنوبه ما جناه أبناؤه على المغرب، مسكين هذا المغرب فهل هو غير نسمة من روح العرب، وقطعة من عقلية العرب وفلذة من كبد العرب؟

ـــ فإن مات منا سيد قام سيد؟ لا وربك الأعلى، فإن مات منا سيد قام أسياد يتقاسمون ملكه، يتحاربون ويتطاحنون فيهلكون ولا يملكون، ولا يخسر الخسارة الكبرى غير الشعب المغربي.

شيد اسماعيل للسيادة العربية صرحاً عظيماً، فانهار ذلك الصرح بعد موته، وحامت عليه عقبان الخراب، انتفضت القبائل على كل ذي أمر ودعوة، أضرب الأسرى عن العمل في تشييد القصور قام العبيد البخاريون يدعون السيادة العليا في الأحكام حاول الأتراك في الخارج ورجال الدين من الداخل أن يتقسموا الإرث العظيم.

وأبناء اسماعيل في هذه الغمرة من الفوضى يتنازعون الملك ويتحاربون فقد جلس المولى عبد الله على العرش وسقط منه ست مرات في خلال عشرين سنة من الفتن والحروب لاحتياجه إلى المال.

أما المولى محمد خلف المولى عبد الله فقد حاول أن يجدد سياسة أجداده الداخلية في حملاته على غلاة الدين وعلى القبائل المتمردة فكان توفيقه كنور الشمس الغاربة بين أكداس من الغيوم وقد حمل على البرتقاليين والأسبان ليخرجهم من ثغور المغرب فتوفق في إخراج البرتقاليين من معقلهم الأخير —مازغان- وأخفق في مليلة فثبت بها الاسبان.

ولكان خلفه المولى سليمان أكثر توفيقاً منه في ترميم أركان الملك وتوطيدها وفي تعزيز شؤون المغرب الخارجية لولا السياسة الأوروبية التي بدأت تقرن الغزوات الاقتصادية والمالية بالغزوات الحربية في عهد هذا السلطان، وقد توفقت كل التوفيق الأكبر يوم احتل الفرنسيون الجزائر (٥ يولوي ١٨٣٠) أي في عهد ابنه المولى عبد الرحمن. وفي احتلال الجزائر بداية احتلالها لجميع أنحاء افريقيا الشمالية الغربية.

البيت العلوي في المغرب

علي الشريف (١٦٣٠م)
محمد بن علي الشريف (١٦٤١م)
الرشيد بن علي (١٦٦٦-١٦٧٢م)
اسماعيل بن علي (١٦٧٢ - ١٧٢٧م)
محمد بن اسماعيل (١٧٢٧-١٧٥٧ م)
عبد الملك بن اسماعيل (١٧٢٧-١٧٥٧ م)
عبد الله بن اسماعيل (١٧٢٧-١٧٥٧ م)
محمد بن عبد الله بن اسماعيل (١٧٥٧ - ١٧٩٠م)
يزيد بن محمد بن عبد الله (١٧٩٠ - ١٧٩٢م)
سليمان بن محمد بن عبد الله (١٧٩٢-١٨٢٢م)
عبد الرحمن بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل (١٨٢٢-١٨٥٩)
محمد بن عبد الرحمن (١٨٥٩ — ١٨٧٣م)

البيت العلوي في المنطقتين الجنوبية والشمالية من المغرب

محمد عبد الرحمن بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل بن علي الشريف (١٨٥٩-١٨٧٣م)

المنطقة الجنوبية

السلطان الحسن بن محمد بن عبد الرحمن (١٨٧٣-١٨٩٤)
السلطان عبد العزيز بن الحسن بن محمد (١٨٩٤-١٩٠٧)
السلطان عبد الحفيظ بن الحسن (١٩٠٧-١٩١٢)
السلطان يوسف بن الحسن (١٩١٢-١٩٢٢)
السلطان الحالي محمد بن يوسف (١٨ نوفمبر ١٩٢٧)
(٢٢ جمادى الأولى ١٣٤٦) وعمره إذ ذاك ١٧ سنة

المنطقة الشمالية

المولى اسماعيل بن محمد عبد الرحمن
الخليفة المهدي بن اسماعيل بن محمد (١٩١٣-١٩٢٣)
الخليفة الحسن بن المهدي (نوفمبر ١٩٢٥ — ربيع الأول ١٣٤٤هـ)